«سكة العاشقين»..
الطريق إلى علبة شيكولاته
(١)

هناك قائمة طويلة من المقترحات حول كيفية قضاء ست ساعات ترانزيت في مطار مدريد، ولكن ما الأنسب من بينها؟

قضينا أنا وصديقي ساعتين نتناول طعام الغداء في مطعم بين عشرات المطاعم التي تعجّ بها صالات وأركان مطار مدريد، يبدو المطار منظمًا أنيقًا أقرب إلى مول ضخم ملحق به مهبط طائرات، رغم فظاظة وغلظة رجال الأمن في التعامل معنا كمواطنين عرب، إلا أن أحدًا لم يسألنا عن سبب تجوالنا يمينًا ويسارًا، كان هذا قبل سنوات من اقتحام الإرهاب لقلب العواصم الأوروبية.

أنفقت ما يعادل ٣٠٠ جنيه ثمنًا لساندوتش تونة مع قطع البطاطس المحمرة وزجاجة كوكاكولا صغيرة، لا أتحسّر على ما أنفقه في طعام إلا لو كان رديئًا، ولهذا ابتلعت اقتراح صديقي بشراء بعض الهدايا من السوق الحرة، واكتفيت بدور المتفرج فقط!

أتجول في المطارات لأتعرف على أنواع الشيكولاته التي لا نراها في بلادنا، ذات مرة استوقفتني جمارك مطار القاهرة؛ بسبب علبة شيكولاته بالكحول أهداني إياها صديق، منذ

هـذه المـرة وأنـا أعـرف تلـك الأنـواع جيـدًا، ولكنهـا لا تسـتفز مشـاعري مثـل الشـيكولاته البيضـاء الغارقـة في المكـسرات والفواكـه الجافـة. في كل مطار لي علبة شـيكولاته تذكّـرني بالرحلة، أعـرف أن كلمـة شـيكولاته دخلـت إلى اللغـة الإنجليزيـة عـبر الإسـبانية، وهـي في الأصـل مشـتقة مـن كلمـة «نواتـل» القادمـة مـن لغـة حضـارة الأزتيـك، قصـة طويلـة لا محـل لهـا الآن خاصـة وأنـا ألتقـط علبـة شـيكولاته ثمنهـا ٣٠ يـورو، تلـك السـاحرة تتـلألأ بلونهـا الأحمـر، وهـي جالسـة فـوق رف مـليء بأنـواع الشـيكولاته، الغامقـة والفاتحـة، المحشـوة والسـادة، المخلوطـة بالقهـوة أو الكحـول أو الفواكـه، أنـا في حـيرة كبـيرة أمـام مغـارة عـلي بابـا التـي تحتـاج مئـات اليوروهـات والـدولارات، وكذلـك عـشرات الزيـارات لعيـادة طبيـب التغذيـة في رحلـة طويلـة لإنقـاص الكيلـوات التـي سـتجثم عـلى جسـدي بعـد ابتلاعهـا.

يقلـب صديقـي بـين الهدايـا بينـما السـماعات لم تغـادر أذنيـه، يأتينـي بقايـا صـوت أشـكّ في اسـم صاحبـه، الموسـيقى تقفـز مـن رأسـه وأنـا أحـاول أن ألتقـط شـيئًا ممـا يسـمع، هـو بالفعـل، مصطفـى قمـر في «بـلاي ليسـت» طويلـة مـن أغـاني التسـعينيات، مصطفـى قمـر الفتـى الذهبـي لفـترة رسـمت ملامـح مراهقتـي بخـط وتريـات حميـد الشـاعري في أغنيـة «سـكة العاشـقين»، أو صـورة المطـرب الـذي لا يفارقـه الجيتـار عـلى غـلاف ألبـوم «لمـن يهمـه الأمـر»، وحكايـات طويلـة في طريـق سـفر بالسـاعات قضيتـه مـع الـواد الإسـكندراني.

(٢)

تناقلـت البرامـج وقصاصـات الصحـف سـيرة مصطفـى قمـر كمطـرب شـاب التقطـه حميـد الشـاعري من عـلى شـاطئ المعمورة

وهو يغني، ولكن القصة التي حكاها «حميد» وآخرون لم تكن كاملة، فقبل ذلك بزمن قضى مصطفى قمر ثلاث سنوات في معركة قانونية مع شركة إنتاج قدّمت له ألبومًا مع فرقة يحيى خليل، القصة كما حكاها أشرف السرخوجلي شريك البدايات أن «مصطفى» كان قادمًا بحلم مشروع غنائي تأثر كثيرًا بما قدّمه «منير» مع يحيى خليل، يظل «منير» وألبومه «شبابيك» أيقونة لجيل كامل فكّر أن يسير على نفس الطريق قبل أن يتلقفه حميد الشاعري، ويعيد صياغة شكل الأغنية المصرية وربما العربية بأفكار جديدة أكثر بساطةً وانطلاقًا.

ماذا حدث عندما توقف مشروع «مصطفى» الغنائي؟

كان أمام خيارين، التنازل عن كل حقوقه لدى الشركة وفسخ التعاقد، أو الاعتزال، والأخير كان قرارًا مطروحًا لولا لقاؤه بحميد الشاعري الذي كان يحضّر ألبوم «لقاء النجوم ١»، دخول «مصطفى» لعالم «حميد» لم يكن بهوية المطرب بقدر كونه ملحنًا موهوبًا، ولكن لاستكمال الألبوم كان لا بد من أغنية نجرب فيها صوت هذا الشاب الذي أعجب «حميد» بأغنيته «زينة» التي كان من المفترض طرحها في ألبومه مع فرقة يحيى خليل، فوجدت طريقها إلى أذن المستمع في هذا الألبوم.

بدا «مصطفى» كصوت يشبه قطعة شيكولاته تمنحك قدرًا من البهجة في لحظة صمت، هاجم النقاد والملحنون الكبار وقتها كل الأصوات التي اكتشفها «حميد»، وكان «مصطفى» في المقدمة، لم يسلم «مصطفى» من النقد، ولكن هل توقف؟

الصعود القوي جاء في ألبوم «لقاء النجوم ٢»، والذي ظهر فيه «مصطفى» بأغنيتين هما «ولا يا أبو خد جميل»، و«يابو

جلابيه طوبي»، يقول «مصطفى»: «راهنت على مستقبلي في الأغنيتين، سواء كنت ملحنًا أو مطربًا، خاصة وأن ظهور ألبوم منفرد لي كان مشروطًا بنجاح أغنية لي في «لقاء النجوم»، وحدث ما كنت أتمناه».

أعجب حميد الشاعري باللحنين، وقرر أن يكونا بداية لانطلاق مصطفى قمر، ولكنه احتفظ بأغنية «يا أبو جلابية طوبي» لألبوم «قمر» الأول، ولكن في هذا الوقت كان «مصطفى» يرسّخ أقدامه كملحن يساهم في تشكيل تجربة موسيقى الجيل، فلحن أغنية «على كيفك ميل» لإيهاب توفيق، وأيضًا «مين قده يا ناس»، ولا ينسى أبناء الجيل أغنية «يا شمس غيبي» التي صنعت شهرة مطربة اسمها «أميرة» سرعان ما اختفت بعد ان اعتزلت وهاجرت إلى أمريكا، ولكن بقيت الأغنية وعاشت حتى الآن، وقدّم لـ«أنوشكا» لحن «أبين زين»، كان هناك خيط يربط ألحان مصطفى قمر، وكأنه خيط النجاح الذي جعل من كل ألحانه علامات في مشوار أصحابها، ربما كان نجاحه كمطرب أبرز وأكثر بريقًا، ولكن أن يتحول المطرب إلى ملحّن له علامات في مشوار زملائه، فهذه قصة تستحق الحكي، مثل قصة أغنية «عودة» التي أهداها لحميد الشاعري بعد رهان على دور كوتشينه.

للقصة بقية:

كانت الكليبات في تلك الحقبة أشبه بقصاصات صور ملونة تبهر العين، ولا تلتقط منها ما يعبر عما تسمع، إزعاج بصري ممنهج، ولكن في صيف ٩٣ اتضحت رغبة في التغيير لدى البعض، أطلق عمرو دياب كليب «الماضي» من إخراج مدير التصوير طارق التلمساني، السينما قادمة إلى عالم الفيديو

كليب، صورة مختلفة، ومحاولات تعبير حقيقية عن الكلمة، ولكن تنقصنا القصة.

في مكتب المخرج خيري بشارة جلس مصطفى قمر يبحث عن مفتاح لقصة تبني صورة أغنيته الجديدة «سكة العاشقين»، أصبح «خيري» وقتها نافذه لظهور التجارب السينمائية لأبناء هذا الجيل، قبلها بعام قدم «آيس كريم في جليم» لعمرو دياب، ثم تعاون مع محمد فؤاد في «أمريكا شيكا بيكا»، وبعدها قدّم «قشر البندق» لحميد الشاعري، هناك نية حقيقية لدى المخرج الشهير في تقديم سينما مختلفة بأصوات مطربي الجيل الجديد، وتم الاتفاق على أغنية «سكة العاشقين» التي ظهرت فيها «فيدرا» كممثلة لأول مرة، ونجح الكليب، ونجح الألبوم نجاحًا كبيرًا، رغم اعتماد «مصطفى» على نفس الأسلوب القديم لإخراج الكليبات في أغنية «بحبك» التي عرفها الجمهور باسم «لو واحد في المليون».

«سكة العاشقين»
غناء: مصطفى قمر
ألحان: مصطفى قمر
كلمات: سامح العجمي
توزيع: حميد الشاعري
إنتاج: سونار